من تراب الطريق (٣٠٤)

لن ينال السلام (*) إلا القادر على الحرب!

ليست هذه دعوة للحرب ، وإنما تقرير لواقع وفهم لضرورة أنه يجب ألاّ تترك الآخر يعتقد أنك صادع خامد خانع معدوم القدرة والحيلة ، لا رغبة ولا قبل لك بالمناضلة حين تجب لنول حقك المهضوم أو المسلوب .. وأنت لن تستطيع أن تقنع الآخر بهذه القدرة بمحض الكلام والطنطنة ، وإنما يجب أن يكون فى واقعك وعملك ورصيدك وعزمك وإرادتك ، ما يحمّل رسالتك بأنك قادر على أن تختار وتمارس وبكفاءة خيار الحرب إن فرض عليك خنوع كالسلام !! خالٍ عارٍ من الحق !

دهمنى ولا يزال هذا الإحساس وأنا أراقب الأنظمة العربية بغير استثناء ، تركت الآخرين يعتقدون اعتقادًا راسخًا لا يتزحزح بأننا فقدنا القدرة ومعها النخوة ، وأننا قد بتنا نتسول ما يُلقى إلينا إن أُلْقى من فتات! الفتات هو غنيمة الشحاذين والمتسولين ، لا يدفعه إن دفعه ! إلاّ الكرم والأريحية ورغبات التفضل والمنّ التى لم يعد لها محل ولا موضع ولا وجود فى دنيا السياسة !

السياسة لا قلب لها ، وإدارة الصراعات وقت السلم أو التهادن لا تقل ، بل هى ربما تكون أعرض من إدارة الصراع زمن الحرب ..

(*) المال٣/ ٨/ ٢٠٠٩

إدارة الصراع ، وتحريك آلياته فى اتجاه حقك ومصلحتك هى ناتج أو لا ناتج ! إمكانياتك وجديتك وقدرتك على ممارسة الصراع بكل أدواته وأشكاله انتهاءً بالحرب إذا لم يكن منها بدّ !!

فأنت لا تستطيع أن تدير هذا الصراع ، إدارة حقيقية منتجة وفاعلة ، ما لم تدرك أدواتك وتقبض عليها ، فأولها أن ولاءك يجب أن يكون لقاعدتك .. لا يبالى بالرضا أو بعدم الرضا هناك ، وأن إمكانياتك معلقة بالقاعدة التى تسندك ، وبالأدوات التى تملكها .. هذه الأدوات لا تترك شيئًا فى موازين القوى إلاّ يجب أن تحرص عليه وتجنيه .. تجنى قاعدة اقتصادية وعلمية متينة ، ووضعًا سياسيًا حاضرًا وفاعلًا ، وقوة عسكرية قادرة ، وعلاقات دولية مؤثرة ومؤازرة من واقع مصالح تفرضها على الآخرين بأكثر مما تتمناه أنت .. هذه المصالح المتبادلة تُنشأ وتُهيأ لها أسبابها إن لم تكن موجودة ، وتُنمى وتُزاد وتُفعل إن كانت قائمة .. فالدول وسياستها وراء مصالحها كالأفراد .. لن يناضل أحد من أجلك إلاّ إذا كانت له مصلحة واضحة فى هذه المناضلة ، ولن يبالى بك أحد إذا كنت لا تبالى بنفسك وحقك ، وتباشره وتنتصر له بنفسك .. على حد الحكمة القائلة : «ما حك جلدك مثل ظفرك ، فتول أنت جميع أمرك» !

أين نحن الآن فيما يجرى فى المشهد الراهن ، لم تقدم ولن تقدم إسرائيل والحال كذلك ما يشف عن أى رغبة فى السلام ، فهى تنعم الآن بكل ما تريده وزيادة بلا حرب ولا سلام ، فهى ناعمة فى الوطن الذى سلبته ، وبمن تهلكه أو تطفشه من بنيه ، وبالقضمات التى أضافتها إليه فى ١٩٦٧

بما فى ذلك القدس العربية وهضبة الجولان التى بدا أنها لم تعد سورية بعد أن أطلقت إسرائيل مشروع قانون يحظر الاستفتاء على ردها .. وهى الآمرة الناهية فى الأراضى المضمومة إلى جوار الوطن السالف سلبه ، المتحكمة فى الإقامة وفى المعابر والمنافذ ، المتمكنة من الحصار الذى فرضته بالجدار العازل الذى لم تبال بحكم محكمة العدل الدولية بالتوقف عن إتمامه وإزالة ما تم منه ، وهى هى التى أعلنت القدس عاصمة أبدية لإسرائيل وانتقلت حكومتها إليها ودون أن يعترض عليها أو يراجعها أحد ، وهى ترفض الدخول فى اتفاقية حظر الأسلحة النووية ناعمة بترسانتها المدمرة التى تركتها الولايات المتحدة بلا أى تعليق ويممت شطر إيران الإسلامية تحظر عليها مجرد التخصيب الذى لم يقم دليل على أنه يتجه لعمل نووى ولو بمعشار معشار ما تمتلكه إسرائيل التى لا يراجعها أحد !!

ما هى إذن الدوافع والمرغبات التى يمكن أن تدفع إسرائيل إلى السلام ؟! أليس السلام يقوض ويوقف ما تجريه الآن من غارات وإبادة وإهلاك وتهجير وتجريف ، وما تقيمه من مستوطنات يجرى العمل فيها على قدم وساق دون مبالاة بالاعتراض الأمريكى الذى يبدونه من باب إبراء الذمة ، هذا الإبراء الذى عز ويعز ولو من باب الشكل على ما يجرى من تهويد للقدس وما حولها فى صورة بلغت حد إجبار أصحاب الدور على هدمها بأيديهم وإلاَّ تعرضوا للعقاب ؟!

إذن ، فليقل لى أحد لماذا تقبل إسرائيل بالسلام ؟! هى نعم تراوغ من أجل إعطاء الانطباع بقبولها للسلام ، ولكنها مراوغة ليس إلاَّ لإلهاء العالم والعرب حتى تستوى وتكتمل الطبخة وتضيع فلسطين وشعبها إلى الأبد !!

ماذا بقى بعد ذلك ؟!.. إن العرب متناحرون ، وهكذا فعلت وتفعل الفصائل الفلسطينية ، والصراع على أشده بين فتح وحماس ، والكل منشغل بالتفاهات عن إدارة صراع حقيقى فاعل يقنع إسرائيل بأنها ستدفع ثمن ما تتصور أنها تسعى لتأبيده ، ويقنع العالم والمتحكمين فى مساره الآن بأن دوام هذا الحال من المحال !

ولكن هذا المحال رهينٌ بأن يرى من بيدهم الأمور ، أن أحدًا لا يستطيع أن ينال السلام ، ما لم يكن قادرًا على الحرب !

*****